مصطفى كمال الزعيم التركى

بقلم الكونت سفورزا وزير خارجية إيطاليا

للأستاذ أحمد رمزى بك

(تتمة)

وددت كثيراً لو أن ما رأيته فى المؤتمر الذى عقد بلندرة فى فبراير سنة ١٩٢١ كان كافياً ليكشف الغطاء من أنظار أولئك السياسيين الذين أبوا أن يسمعوا لأى نصيحة فيتبينوا الحقائق .

حضر إلى هذا المؤتمر وفدان تركيان ..

الأول يمثل تركيا الرسمية حكومة السلطان المعترف بها وعلى رأسه توفيق باشا ، وهو رجل طاعن فى السن محترم من الجميع تولى الصدارة العظمى عدة مرات .

والثانى وفد حكومة أنقرة يرأسه وزير خارجيتها بكير سامى بك . وقد رفضت الحكومة البريطانية استقباله حتى لا يؤخذ هذا منها بأنه اعتراف رسمى بحكومة الكماليين .

ولكن كم كانت دهشة المفوضين الأوربيين الذين كانوا يؤملون رؤية أعضاء الوفدين تفرق بينهم الكراهية والبغضاء أن يجدوهم فى تآلف تام جالسين على نفس المقاعد .

وكم كان تعجبهم لدى رؤية ذلك الشيخ الوقور توفيق باشا يقف بما له من حق الرياسة على المندوبين الترك ليعطى الكلمة لبكير سامى بك رئيس وفد أنقرة الذى تكلم بالنيابة عن الوفدين

وقد أدرك بكير سامى بك قيمة النصائح التى أسداها إليه المسيو بريان رئيس الوفد الفرنسى والتى أبديتها من جهتى بالتمسك بخطة معتدلة وقدر ما يمكن أن تكسبه قضية بلاده إذا أظهر أنه أكثر رغبة من المفوضين اليونان فى قبول رأى هيئة تحكيم منصفة .

وبناء عن هذه الخطة تم قبول اقتراح التحكيم ومشروع إجراء التحقيق الدولى فى آسيا الصغرى .

وكان هذا القرار على جانب عظيم من الأهمية السياسية لما قد يأتى به من النتائج الحاسمة ولأن فى قبول دول إنجلترة وفرنسا وإيطاليا إجراء تحقيق فى الأقاصيل اعترافاً ضمناً من واضعى معاهدة سيفر، أنهم لم يحسنوا استقاء المعلومات الحقيقية فبنوا عملهم فى سياستهم الشرقية على مبادئ غير مستقيمة مع الواقع .

ولم يكن لدى الزعيم التركى ما يحمله على التشدد ، لأن كل المظاهر تدل على أنه قد اقترب من الحصول على صلح يصح أن يقبل .

* * *

ولكن لم تمض ثلاثة شهور على هذا حتى انهار كل البناء لأن حكومة أثينا رفضت الاعتراف بقرارات لجنة التحقيق ولجأت إلى تحكيم القوة .

فكانت هزائمهم لسنة ١٩٢١ التى أعقبت توغلهم فى الداخل وانتهت بتراجعهم إلى خط أفيون قره حصار وكوتاهية حيث وقفوا سنة بطولها ينتظرون ، ذلك لأن الزعيم التركى أراد لهم هذا — وقد يكون المرء فى تربته وإمهاله لخصمه أكثر شجاعة منه فى مبادرته بالهجوم ومناجزته لعدوه .

وهكذا تحفزهم سنة بطولها حتى أتم عدته ثم قضى عليهم بضربة كانت الأخيرة .

لأنه فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٢ هاجم أفيون قره حصار، وفى اليوم التالى أتم فتح الثغرة فى قلب الجيش اليونانى ، فأصدر القائد العام الجنرال تريكوبيس أمراً بالتراجع انتهى بتمزيق الجيش كله ووقوع القائد نفسه أسيراً فى يدى مفرزة من الفرسان الأتراك ، وكان ختام المعارك احتلال أزمير التى دخلها الترك بعد مضى أسبوع واحد على اختراقهم الجبهة .

أعقب ذلك ضياع الملك من يدى قسطنطين ثم اجتماع مندوبى إنجلترة وفرنسا وإيطاليا فى ١١ أكتوبر سنة ١٩٢٢ ليوقفوا الحركات العدائية بهدنة مودانية التى اختتمت بعقدها أربع سنوات مملوءة بالأوهام والأخطاء ، والتى أرجعت لحكومة أنقرة استانبول وتراقيا الشرقية وأدخلت جيشهم إلى أوربا منتصراً تحت قيادة مصطفى كمال الذى فكر بعض عمال بريطانيا عند بدء الاحتلال فى تقيه إلى مالطة .

* * *

وليس الغرض من سياق هذا الحديث والدخول فى التفاصيل أن أشرح حوادث كنت شاهداً لها وعاملاً فيها بطبيعة المراكز التى شغلتها كمندوب سام لإيطاليا فى الشرق أو وزيراً للخارجية الإيطالية فى روما أو سفير لإيطاليا فى باريس وقت عقد هدنة مودانيا ، وإنما قصدت أن أشير فى هذه التفاصيل إلى الأسباب الخارجية الحقيقية التى سببت نجـــاح الزعيم التركى وساعدته على الوصول إلى هذه النتيجة .

* * *

لقد حكم الزعيم التركى بلاده منذ ذلك التاريخ كدكتاتور ، وأظهر رقبة وحماساً شديدين للتجديد والتبديل متجهاً بكليته نحو أوربا بشكل جعل مفكرى الغرب ينظرون إلى هذه التغييرات بنير النظرة التى كان ينتظرها منهم ، لأن أغلبها مظهرى ، ثم هى ثانوية بجانب الأعمال الضرورية الأخرى ولم تقتصر نتيجتها على إهمال التقاليد الإسلامية التى طالما استمد منها الشعب التركى قوته وجلده فى القرون الماضية .

والخطأ العظيم الذى ارتكبه الزعيم فى عمله الإصلاحى هو محاولة الجرى بسرعة لم يجرؤ عليهـا المصلحون الذين تقدموه ، ولا يبعد أن تكون وسائل الاتصال الحديثة من السكك الحديدية وغيرها وما طرأ على العالم بعد الحرب العظمى قد أثرت فيه وجعلته يعتقد أن فكرة التقريب بين شعوب تختلف اختلافاً كلياً فى الأفكار والعواطف أصبحت أمراً سهلا مستطاعاً فى الوقت الحاضر .

ولكن هذه الإصلاحات التربية مهما تشعبت وكثرت فلن تكوّن فى يوم ما إلا دوراً ثانوياً بجانب العمل الكبير الذى قام به الزعيم كمنظم وموجد لقوة العسكرية التى كوّنها من العدم فى بلاده ، ثم كمحرك لعوامل الدفاع والجهاد بين قومه ، وسيبقى اسمه كجندى ورجل من رجال الحرب يذكره التاريخ دائماً مقترناً بالحركة العظيمة التى كان على رأسها .

وقد امتاز مصطفى كمال فى كل أدوار حركته الاستقلالية بتيقظه وضبطه لنفسه وطول أناته ؛ وكان فى أشد الأوقات وأعصبها مالكا لحواسه شديد الحذر فى تصرفاته بقدر ما كان سريع الإقدام والتنفيذ فى إصلاحاته وتغييره الطربوش وأخذه بالقبعة .

ولطالما دفعه أنصاره — وفريق منهم يبطن الكيد له — إلى التعجل . فكان يأبى إلا أن يصبر الشهور الطوال وهو لايدى نشاطاً للقتال ، بل يجمع قواته ويزيد فى معدات جيشه ، ويزن الأمور حتى يتأكد من أن كل عوامل النجاح فى صفه ، ثم يوجه ضربته الأخيرة . وما إن يقذف بقواته حتى يرى أعوانه أن ذلك التباطؤ الذى طالما أخذوه عليه قد انقلب إلى دقة ومناجزة للخصم قوية يسيرها نشاط دائم منظم لا يوقفه عائق حتى يقذف بالأعداء إلى البحر .

والذى يدهش له الإنســان أن هذه الصفات التى ملكها الزعيم التركى لم تغادره وهو فى أعلى قمة مجده وعلى رأسه أكاليل النصر وطلوع أمره جيش يتوّج بنشوة الظفر — لأنه غداة المعارك التى اكتسحها تلاقت طلائع جيشه أمام غاليبولى بقوات بريطانية تحاول منعه من العبور إلى الشاطىء الأوربى إذ قرر لويد جورج ساعتئذ أن يوقف سيل الجيش المنتصر أمام المنطقة المحايدة المضايق ، ومعنى هذا قيام حرب جديدة .

وكان رئيس وزراء بريطانيا مصمما على هذا الرأى على رغم مخالفة فرنسا وإيطاليا له ، بل وقبل أن يستشير رؤساء وزارات المستعمرات البريطانية الحرة — الدومنيون — قبل قذفه بالأمبراطورية فى غمار حرب جديدة ، وهذه غلطة أخذها عليه السياسيون الإنجليز لمخالفتها لنصوص نظام تكوين أمبراطوريتهم .

ولكن الزعيم التركى فاز بصبره عليه إذ عرف كيف يتجنب خطر ذلك الموقف الزلق ، وكيف يدرأ عن بلاده مصيبة حرب جديدة ، وقدر على نفسه وهو فى قمة مجده وبيده مقاليد رجال طلوع إشارته ، فردها عن سراب الأطماع وأخضع نفسه لإرادته

ويلذ لى هنا ذكر ما كتبه تشرشل وهو الواضع مع لويد جورج أساس السياسة التى اتبعتها بريطانيا فى الشرق الأدنى والمسئول معه عن نتائجها وإن كان كاتبها لم يقدر تماماً ما كان للزعيم التركى من فضل فى حقنه للدماء وإيقافه اشتعال حرب جديدة مع دولة أوربية بعد أربع سنوات من انتهاء الحرب العظمى قال . .

« وجه كمال كل مجهوده إلى الغرض الأساسى الذى أمامه والذى كان من السهل الوصول إليه واستعمل قوات الفرسان

التي كانت تحمي جناحيه ليظهر قوته أمام الإنجليز المحتلين لخناق — ولكنه أصدر لضباطه تعليمات صريحة شديدة ليتحاشوا القيام بأي مظهر عدائي، وأن يكون تقدمهم بطريقة ودية. ولم يتغير تصرفهم هذا أمام كل الظروف التي اعترضتهم، بل ذهبوا إلى إظهار التآخي بطلب بعض المهمات والأشياء التي يحصل تبادلها بين قوات متحابة معسكرة في مكان واحد — وبهذا أمنت كل القوات البريطانية التي كانت محتلة للمضيق في الوقت الذي كان الخطر محدقاً فيه باستانبول التي لم يكن من اختصاص بريطانيا الدفاع عنها.

* * *

لقد عرفت عن كثب أنور باشا وهو قائد من رجال الحرب نبغ من بين أحرار الأتراك، وكان عاملاً من أول الحركة التي أشعلتها جمعية الاتحاد والترقي، ثم قائداً في حرب طرابلس ضد إيطاليا، وأخيراً في الحرب البلقانية

ولم أر اليأس قط متغلباً على أنور حتى في أشد الأوقات محنة حينما كان البلقانيون على خطوط تشاطلجة، ولكن مزاياه الخلقية والفكرية كانت تتضاءل أمام حبه للمباهاة بنفسه وخيلائه.

ولذلك قصر من تملك القدرة على النظر بدقة إلى الأمور وتفهم الأشياء على طريقة كمال الذي يتبع خطة للعمل يقرن فيها الإقدام المتناهي مع الصبر والتأني الطويل ويعرف كيف يُمِلي على نفسه وهو قائم بحرك الجيوش على جبهة القتال — وهذا هو سر نجاحه —

وهذا دليل على أن الروح العسكرية القديمة التي كانت لدى العثمانيين القدماء ومكنتهم من تدويخ أوربا ومقارعتهم لها وهم تحت أسوار فينا قد عادت وتقمصت فيه.

ولكن المهمة السياسية التي ألقيت على عاتق هؤلاء كانت سهلة ليست مستعصية كالتي تلقاها خلفهم في القرن العشرين لأنهم دخلوا أوربا منتصرين واحتلوا بلاداً وأقطاراً شاسعة وكان من حقهم إهمال من يعيش فيها ما دامت القوة في جانبهم

إلى أصرف النظر كما ذكرت في السابق عن موضوع إسلاحاته الفكرية التي أعدها من قبيل عمل المسيطرين القواة المتشبعين بطريقة بطرس الأكبر — وأعود إلى سياسته التي أوجدها لنفسه أمام الظروف القاسية التي وجد فيها بلاده، تلك السياسة التي أملاها بحزم، وتصر نفسه عليها من البدء إلى النهاية ثم داوم على اتباعها مخالفاً بذلك تقاليد الدكتاتوريين الذين قبله وما يسمله دكتاتوريو هذا العصر.

لأن كلا منهم في حاجة إلى اتباع سياسة مظهرية ترمي إلى إدخال الهيبة في نفوس العامة، وفي حاجة إلى إشغال الشعوب التي فقدت حريتها بشيء من المجد.

وأرى مصطفى كمال الأول من هذا النوع من الناس الذي أوتي من الشجاعة الأدبية ما جعله يقرر من أول الأمر أن يقصر نفسه عن هذه المظاهر المخربة — ثم أن يداوم على حرمان نفسه وعدم إشغال أمته بمثل هذا بعد انتصاره وقد بلغ من الأمر منتهاه. فكثيراً ما هددت الدولة العثمانية بخلافها وبإعلانها الجهاد رغبة منها في الظهور بمظاهر الدولة ذات السياسة العالمية وإن كانت تمثل الرجعية والتقهقر بأجلى مظاهرها. وجاء مصطفى كمال فكان أول من تحقق من أن مصلحة تركيا تقضي بتنازلها عن أي نفوذ أو سلطة خارج حدودها القومية، ولذلك وضع نصب عينيه أن يتحاشى إشغالها بأي عمل يشم منه الرغبة في مغامرات خارجية فوق طاقتها.

وقد عاينت ذلك بنفسي في الشهور الأولى من عام ١٩١٩ حينما كنت باستانبول وتيقنت من أن الزعيم التركي قد عزم على اتباع هذه السياسة الإيجابية التي تؤدي حتماً إلى استقلال فعلي حقيقي لتركيا.

وكان قد لجأ إلى بروسة في تلك الأيام السيد أحمد السنوسي الزعيم الديني الشهور في برقة حينما أيقن من ضياع آماله في إخراج الإيطاليين من بلاده. ولما كنت مقتنعاً بأن السياسة العملية الوحيدة لتوطيد الأمن والسلام في ربوع المستعمرتين الإيطاليتين تتلخص في إعطاء الأهالي الوطنيين شيئاً من الحكم الذاتي الواسع النطاق، لم أتردد لحظة واحدة في قبول الفاتحات التي عرضها علي أصدقاء السيد السنوسي باستانبول، وفعلا دخلت معه في محادثات طويلة على الطريقة المتادة للشرقيين انتهت به إلى فهم وتقدير مشروع اتفاق مع الحكومة الإيطالية يعطي للسيد سلطة متسعة في الداخل على شرط أن يعترف نهائياً بسيادة إيطاليا على بلاده وأن يعطي الوثيق بتشجيع ومساعدة المصالح الاقتصادية والسياسية في بقية الجهات الواقعة تحت حكم إيطاليا مباشرة في طرابلس وبرقة.

وقد عقد فعلا وزير المستعمرات الإيطالية السنيور لوجي